المطران يوسف دريان

عرفتُ المطران يوسف دريان وهو قسيس حديث في وظيفة كاتم اسرار البطريرك بولس مسعد وقد نبه في الناس اسمهُ ووصف بالذكاء والاقدام وعلو الهمة فضلاً عن العلم والمعرفة . لان الوظيفة التي اختير لها البسها طور لبنان السياسي وشاحاً سياسيًّا فوق وشاحها الديني. فلا يكاد يظهر في الناس وفي الاعمال المظهر الاول حتى يقترن بهِ فيهم المظهر الثاني وبالعكس فلا مندوحة للرئيس الديني في الشرق — وفي الغرب ايضاً — عن ان يكون رئيساً دينيًّا سياسيًّا . والمقصر او العاجز في امر من الامرين يعاب عليهِ عجزهُ وتقصيرهُ ولا تشفع بهِ عند الناس في مصالحهم المادية تقوى الرئيس وصلاحهُ

ثم عرفتهُ وهو مطران في وظيفة النائب البطريركي للبطريرك يوحنا الحاج وقد ازداد رفعةً في المقام وبسطة في الجاه وشهرة بين الناس . لانهُ كان المنفذ لآراء بطريركين اتفقت الكلمة على انهما اكبر بطاركة الطائفة المارونية في العهد الحديث . فاذا كان قد تربّى على ايديهما فانهُ استمد لامرهِ كثيراً من حكمة تدبيرهما وخطتهما وقد قطر على الاقدام حتى لا يعرف امامهُ حائلاً وعلى قوة العارضة وذلاقة اللسان وقوة الذاكرة فيقنع بحجتهِ ويستنبط برهانهُ ويرضي محدثهُ وان كان خصماً لهُ لدوداً . اضف الى هذه الصفات كثرة مطالعتهِ وحذاقتهِ بآداب اللغة السريانية واللغة العربية على وجه التخصيص حتى يصح ان يقال انهُ كان من اكبر حفظة آداب العرب شعراً ونثراً

كبير التلب والنفس اذا دعي لامر لا يتلكأ . ذو هوادة بالدين لا يضرب حول نفسهِ نطاقاً من التعصب يتملكهُ فيلقي على بصرهِ غشاوة

حسن الظن بالناس حتى السذاجة فما كان يخطر لهُ ان من الناس كذبة افاكين او اصحاب مآرب يسلكون اليها طرقاً بدداً باساليب ممجة عوجاء لانهُ طبع على الاقدام والصراحة فعند كل صاحب حاجة طالباً حاجتهُ تقوة باعهِ وذراعهِ لا بحيلتهِ ودهائهِ وخداعهِ . ولربما كان لقوة جسمهِ المتين وهيكلهِ الكبير هذا السلطان في تربية نفسهِ وخلقهِ ويقينهِ فيأخذ بمظهر الناس لديهِ ويأبى ان يهبط الى اعماق

قلوبهم فكان يعلل اعمالهم بتلك المظاهر. فمن تقرب اليهِ لقي منهُ الاخلاص وحسن اليقين والاعتقاد بهِ اعتقاداً لا يشوبهِ تردد ولا سحابة من الشك والريب. فكان اذا اعطى قلبهُ أعطاهُ كاملاً بجملتهِ. واذا اولى صداقتهُ اولاها خالصةً تامةً. ولم يحولهُ عن ذلك من يوم تبرأ المناصب العالية في رئاسة طائفتهِ الى يوم سلَّم نفسهُ للطبيب الجراح فمات — حول او طول خبرة او لدغهُ مراراً وتكراراً من جحر واحد احياناً فلم يكن يضحي لاصحابهِ عقيدتهُ بالشيء ولكنهُ كان يقدم او يضحي حسن ظنهِ وبذلك كان يوفق بين عواطفهِ ويقينهِ فيكفي خصمهُ ان يتقدم اليهِ حتى ينقلب صديقاً ويكفي صديقهُ ان يبتعد عنهُ حتى ينزل منهُ منزلة الخصم

هذا هو الرجل الذي احدثت وفاتهُ في الطائفة المارونية وفي ابناء عشيرتهِ اللبنانية السورية هزة عنيفة وهذه صفاتهُ التي امتاز بها وهو يعالج الامور والشؤون العامة والخاصة مدة ٣٢ سنة وتلك هي الاسباب التي مهدت لهُ في حياتهِ كثيراً من الشهرة وكثيراً من التوفيق وكثيراً من الراحة وكثيراً من التعب حتى كان في كل امرة من معارفهِ كواحد منهم ومع كل صديق من اصدقائهِ اخلص الناس لهُ

ولد طوبيا بن بطرس بن الخوري انطون دريان في قرية عشقوت من اعمال كسروان احد اقاليم جبل لبنان في اول نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٨٦١ وشبَّ في مدينة بيروت ودخل الرهبنة الحلبية المارونية سنة ١٨٧٧ وتلقى العلوم في مدرسة هذه الرهبنة في رومه واوطا لغة الكتب المقدسة عند النصارى اي السريانية والعبرية واليونانية واللاتينية واعتلت هناك صحتهُ قبل ان يتم علومهُ فعاد الى لبنان فأقام عامه في مدرسة الآباء اليسوعيين في بيروت وفي ١٩ يوليو (تموز) ١٨٨٨ رقاهُ المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت على الطائفة المارونية الى رتبة القسوسية ولشهرتهِ بالذكاء والعلم والادب اتخذهُ البطريرك بولس مسعد في السنة ذاتها كاتماً لاسراره. ولما القيت مقاليد البطريركية الى البطريرك يوحنا الحاج اقرهُ في وظيفتهِ ثم رقاهُ الى منصب الاسقفية على طرسوس (اسماً) والى النيابة البطريركية فعلاً. وللبطريرك نائبان استقفان احدهما للامور المادية ويلقبونهُ بالنائب الزمني والثاني للامور الدينية ويلقبونهُ بالنائب الروحي وكان المطران دريان يشغل منصب النائب الزمني فبحكم منصبهِ كان يشتغل بالامور

السياسية بارشاد ذلك البطريرك الحصيف المشهور. فذاع صيتهُ وتجلت لدى ابناء وطنهِ وطنيتهُ الكبيرة وجرأتهُ في المواقف التي يحجم فيها الاكثرون عن الاقدام. ووقعت في هذه الفترة من الزمن حوادث عديدة في جبل لبنان فكثر ذكر اسمهِ ومساعيهِ ورسائله وأعماله وهذا ما حببهُ الى ابناء طائفتهِ في القطر المصري عند ما طلبوا من ضبطة البطريرك الياس الحويك تعيينهُ مطراناً عليهم في هذا القطر وهذا ما حدا بالمرحوم الكونت خليل صعب صاحب الوقف على هذه الطائفة في شارع حمدي ان يجعل هذا الوقف محبوساً على المطران يوسف دريان طول حياتهِ

وفي سنة ١٩٠٠ اوفدهُ البطريرك الى رومه لتهنئة البابا بيوبيله على رأس وفد الف لتأدية هذه المهمة وزار مع الوفد مدينة باريز ابان معرضها العام ومرَّ في عودتهِ بمصر

ثم زار اوربا مرة ثانية على رأس وفد ثانٍ بمهمة دينية سياسية في سنة ١٩٠٥ وفي سنة ١٩٠٦ عين نائباً بطريركيًّا في القطر المصري فسر ابناء طائفتهِ بهذا التعيين وفتحوا الاكتتابات لدار الاسقفية وامدتهُ الجمعية الخيرية بمبلغ من صندوقها لانشاء المدرسة وتوسط وجوهها واعيانها لبناء كنيسة الطليوبوليس ومدرستها وفتحوا لهذا الغرض الاكتتابات في مصر ولبنان. وكان يتولى ادارة وقف اخر في لبنان وقفهُ البطريرك يوحنا الحاج على مدرسة تنشأ لتعليم رجال الدين وتهذيبهم ولكنهُ حول ادارة هذا الوقف الى الدار البطريركية. ومن غريب الاتفاق انهُ رقي الى مرتبة المطرنية في ٢٢ مارس (اذار) ١٨٩٦ وتوفي في ٢٢ مارس ١٩٢٠

***

كتب المطران يوسف دريان في الشعر والادب كثيراً واستخرج من دفائن مكتبة الفاتيكان كثيراً من كنوز الآداب العربية ولكثرة مشاغلهِ لم يتمكن من طبعها مع شدة رغبتهِ في ذلك ولكنهُ نشر نبذاً منها في المجلات والصحف

ولهُ تأليف نافع في صرف اللغة السريانية ونحوها وكان يقارن بين السريانية والعربية مقارنة المطلع الضليع باللغتين

ومن تآليفهِ التي تتداولها الايدي كتابهُ في النذور الرهبانية وكتابهُ في تاريخ البطريركية الانطاكية واصل الطائفة المارونية ورسالتهُ في اصل المردة والجراجمة والموارنة وهي رسالة جدلية خرج بها عن المتعارف المتواتر عند المؤرخين ولقد تكون الرسالة دليلاً على شدة عارضتهِ وصفاء ذهنهِ وقوة الاستنتاج وبراعة التصرف اكثر من دلالتها على الحقائق التاريخية الغامضة في الموضوع الذي توخى الخوض فيهِ واجلاء غوامضهِ . اذا صح ان التاريخ تقرير واقع لا تعليل مستنبط

ثم رسالتهُ « لباب البراهين الجلية عن حقيقة الطائفة المارونية » واخرى في اصل الطائفة المارونية واستقلالها في جبل لبنان

وفي كل ما كتب والف يلقى القارىء طلاوة العبارة مقروناً بالعجلة وكثيراً ما كان يتملك قلمهُ البرهان الواحد فيكثر من تكراره ويعود اليهِ كما يعود الشاعر الى المطلع في الانشودة وهذا ما دعاهُ الى طبع رسائلهِ مراراً بعد تنقيحها وتصحيحها. ولربما كانت هذه الرسائل بالغة حد الكمال لو ان المؤلف تفرغ لها دون عمل آخر وانما يعرف لهُ فوق ما تقدم سرعة الخاطر والاندفاع في البحث اندفاع التيار الجارف فقد كانت المقالة تظهر في احدى المجلات في الصباح فيرد عليها في المساء مع ما تطلبهُ من البحث والتدقيق والعناء

ولقد كان من قوة الحافظة بان يحفظ ديواناً او بعض ديوان من الشعر القديم او النثر غير المألوف في هذا العصر وكان لهُ ولع خاص بموشحات الاندلسيين لتضمنها الوصف

كان فوق ما تقدم لساناً فصيحاً فما استعد لخطبة او عظة يلقيها ولكنهُ كان يبدأ خطابهُ بتردد قليل ثم تنشبه ذاكرتهُ فيتدفق كالسيل فلا يمل سامعهُ وصار ذلك سجية فيهِ غلب عليها نفسهُ فلم يستطع التحول عما ألف

هذا ما عرفتهُ فيهِ في ربع قرن من الحياة المشتركة عملاً ومتاعب وحلاوة ومرارة وائتلافاً واختلافاً وصحبة وفراقاً فمن كانت حال المغفور لهُ المطران يوسف دريان حاله تراك عودتهِ فراغاً قد يدوم مدة الى ان تملأ الطبيعة ذلك الفراغ والطبيعة عدوة العدم لا ترضى غير الوجود

داود بركات